الباقيات الصالحات خير..

تصور معي هذا المشهد:

لو جلست إلى ثري يملك من المال الكثير وقرأت عليه الآية الكريمة "المال والبنونَ زينةُ الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خيرٌ عند ربك ثوابًا وخير أملاً".. هل يمكن أن يستشعر ما تقول أو هل يمكن أن يتأثر ويعتبر الباقيات الصالحات خيرًا مما في يده من ملايين أو بلايين؟

قبل أن نتعمق لنتعرف على الباقيات الصالحات، والتي هي بشكل موجز، كما قال كثير من المفسرين وأشهرهم ابن عباس رضي الله عنه، أنها الأعمال الصالحة وأبرزها سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله.

نرجع إلى مشهد صاحبنا الثري زاده الله ثراءً وحكمة، فنتساءل ونقول: أتعتقد أن مثله وهو من يملك المليارات ويعيش حياة هانئة رغيدة سعيدة، يمكن أن يتوقف عند هذه الآيات في سورة الكهف، سواء أكان يقرأها بنفسه أم يسمعها من غيره؟ هل يمكن أن يعتبر تلك الباقيات الصالحات خيراً مما يملك؟ وهل يتمكن من إقناع نفسه بذلك، وهو يرى بين يديه المال وربما البنين ومعهما الذهب والأسهم والسيارات والعقارات يتصرف فيها كما يشاء وكيف يشاء وقتما شاء؟

الإجابة تحتمل الإيجاب أو السلب.. نعم قد يتأثر ملياردير أو ثري فتح الله عليه كنوز الأرض بهذه الآية، فيما غيره لا يريد حتى أن يسمعها، لماذا؟ هذا هو السؤال المهم وهو لب موضوعنا.

المسألة ليست سهلة كما ننطق بالآيات أو نكتبها أو نفسرها.. لماذا ليست سهلة؟ لأنها تتعلق بالنفس البشرية والإيمان.. هذا الإيمان الذي لو لم يتغلغل في تلك النفس، فلن ينفع معها أي وعظ أو تذكير، فيما العكس صحيح لا ريب.. لكن لماذا المسألة صعبة مرة أخرى؟ الإجابة بكل اختصار تكمن في أن النفس البشرية التي تتخاصم مع الإيمان ولا تدع المجال له ليدخل فيها ويستوطن، تجدها غاية في التعقيد وغاية في القسوة، وخاصة حين تأتي المسألة وفيها غيبيات أو مستقبليات. الإيمان حين يتمكن من النفس، فلا شيء يمكنه أن يوقف تلك النفس من تصور المستقبل وتمني خيراته، التي هي في عقيدتنا متمثلة في رضا الله ومن ثم دخول الجنة.

لذلك يقال إن الغني الشكور أفضل عند الله من الفقير الصبور، لأن الغني حين يعتقد بخير المستقبل القادم والموجود عند الله ويتمناه، وأهمية العمل وإعداد العدة له، على الرغم مما هو عليه من ملهيات وآخذات النفس عن الآخرة، هو بكل تأكيد أقوى من ذاك الفقير الذي لا يجد أي سلوى أو خيار لحاله سوى الصبر وتمني آخرة طيبة أو ختام طيب.

من هنا نجد أن الإيمان مهم في حياة أي منا، إذ بدونه لا يمكن تفسير أمور تقع أمامنا أو الاقتناع بها لأن المحسوسات غالبًا تكون قوية وذات تأثير كبير بالغ، اكثر من الغيبيات غير المحسوسة أو المادية مثل الباقيات الصالحات، التي بدون الإيمان الراسخ بالقلب، فلا يمكن أن تكون مقنعة..

المسألة بحاجة الى شيء من التأمل والتفكر، وأوقات الليل الأخيرة، هي من أجمل وأفضل تلكم الأوقات لمثل هذه التأملات وكل ما يمكن أن يحفز ويدعم الإيمان بالقلب، فهل نفعل؟